هاكم قبعة أخرى

تأليف لويجى براندللوا Luigi Pirandeils

وترجمة الدكتور محمد عوض محمد

(ولد لويجى بيراندللو فى ٢٨ يونيو سنة ١٨٦٧ ، فى إحدى القرى بجزيرة صقلية. ودرس فى روما وفى ألمانيا ، ثم عاد الى روما واحترف أولا مهنة التدريس وانصرف فى جهوده الادبيه أولا إلى الشعر . ثم إلى التأليف القصصى : ثم المسرحى وقد سلك فى بادىء الامر مسلك جيوفانى فرجا (G Verga) الروائى الصقلى الشهير . فكان يتخذ من قصصه وسيلة لوصف أهل صقلية ومعيشتهم وطباعهم . لكنه مالبث أن ظهر أسلوبه الخاص . فى رواية الشيوخ والشباب وفى نصف المرحوم ماتيا باسكال . وأكبر ما يعاب على بيراندللو تغليب العقل على العاطفة فى مؤلفاته ونظره الى الاشياء على غير حقيقتها . وإغراقه فى التحليل وتشابهه . ولكن براعته ومقدرته كانت موضع اعجاب شديد فى جميع أوروبا . وقد ترجمت قصصه وتآليفه المسرحية الى ١٥ لغة . ومثلت تمثيله المسرحية بالفرقة الايطالية فى انكارة وفرنسا وسويسرة وفى ألمانيا بنجاح شديد . وكان المؤلف نفسه يشرف على اخراجها .)

بعد أن قضى ديجو بروتر ساعات طوالا يتمشى ، بلا قصد ولا مأرب ، على ضفاف نهر التيبر ، فى ذلك الحى الهادىء المسمى برانى دى كابتلى Prati dei Catselli ملتزما فى مسيره جدران الثكنات ، ومبتعداً قدر جهده عن ضوء المصابيح ، أحس بأن التعب قد نال منه فتوقف هنيهة تحت ظل شجرة ، ثم صعد البرابى المطلة على النهر . . وهناك جلس مولياً وجهه تلقاء النهر ، ومدلياً رجليه من فوق السور .

ومن تحته الماء يتدافع فى جريانه بصوت مبهم غامض . وقد انعكست على صفحته القاتمة اضواء مرتعدة مضطربة أرسلتها مصابيح الضفة المقابلة وشمل السكون المكان ، فلم يكن ينبعث من المنازل المقابلة صوت ؛ ومن وراء تلك المنازل ، على بعد شاسع ، كان يبدو شبح مدينة روما . وفى السماء قطار يتدافع من السحب الصغيرة ، ذات اللون الرمادى الشاحب . وكأنما كانت تهرول مسرعة ! لكى تلبى دعوة داع قد أهاب بها من المشرق الى اجتماع غامض عجيب ، وقد أشرف القمر من فوقها كأنه يستعرضها وهى تمر سراعا بين يديه .

جلس الفتى من غير حراك ، وقد ولى وجهه شطر السماء ، محدقا فى تلك السحب . التى استطاعت بجريانها السريع أن تكسب الليلة المقمرة نشاطها وحركة .

وطرق سمعه فجأة وقع خطوات . فالتفت ليرى القادم ولكن الصوت انقطع .

لا شك أن هذا أحد الناس . قد وقف ليرقب مثله منظر الليل ولكى يتأمل فى تلك السحائب وهى تمضى سراعا ، والى القمر فى السماء إذ يستعرضها ، والى تلك المياه المظلمة القاتمة ، وما انعكس عليها من شعاع مرتعد مضطرب .

ثم تهدد تهد الحزين . فان احساسه بوجود رجل آخر ضايقه ، وأفسد عليه تلك اللذة الحزينة التى يبعثها شعوره بالوحدة . ومن حسن الطالع أنه كان يجلس فى الظلام ، فعسى القادم ألا يراه ، والتفت لكى يستوثق من الأمر

وجعل يحدق فى هذا الغريب . ياعجبا ! ماخطب هذا الرجل وقد وقف جامدا فريدا وحيدا ؟ ثم ما هذا الشىء الذى بيده كأنه حقيبة صغيرة ؟ لا ليست هذه حقيبة . بل قبعة . . . وبعد فماذا عساه أن يفعل؟ ويلاه ! إنه يصعد السور . . أتراه يريد أن يرتكب . . ويلاه . . ماهذا . .

وتراجع ديجو بغريزته الى الوراء ، مغمضا عينيه ، حابسا نفسه ، ومادا يده الى الأمام كأنما يدفع شرا ، وهو يتوقع سماع صوت ذلك السقوط المروع فى الماء الذى تحته .

حادث انتحار . . . ياعجبا . . كيف يجوز مثل هذا ؟

ثم فتح عينيه ، وجعل يحدق فى الماء تحديقا شديدا وهو يحاول أن يخترق ببصره أعماقه السوداء . فلم تقع عيناه على شىء . . . الصمت شامل والهدوء باسط جناحيه . . لا صياح ولا نداء ولا صوت . فياعجبا ! ألم يره أحد ، ولم يسمع صوته أنسان؟ هنالك تحت لجج النهر رجل يغرق ، ولعله الآن يكافح فى يأس وفى جهد . . . كل هذا يجرى وهو جالس فى مكانه مرتعدا عاجزا خائرا ! . . . أما يحمل به أن يبادر فيطلب النجدة ! أو يصيح بأعلى صوته . ولكن هيهات . . لم يعد يجدى الصياح والاستنجاد ! لقد رضى أن يبقى جثيا فى مكانه المظلم ، تاركا ذلك المسكين يغرق ! . . جمد فى مكانه كالصخرة الصماء ، حابسا نفسه ، سائلا نفسه من آن الى آن : أحقا قضى الأمر . . قضى الأمر ؟

وبعد حين جعل ينظر فيما حوله . . لعل الأمر كله حلم رآه ! أن كل شىء باق كما هو لم يتغير : المدينة راقدة تحرسها المصابيح ، وسط سكون عميق كما كانت من قبل ، والأضواء ترتعد على صفحة الماء القاتمة بأشعة ثعبانية ملتوية . . لم يتغير فى هذا المنظر كله سوى شىء واحد : فلقد كان على عمود مصباح من المصابيح قبعة الرجل بقيت هناك حيث تركها ، وكان المصباح يرسل عليها شعاعا شاحبا مشئوما . . وكان يخيل اليه أن تلك القبعة توثبه وتتهمه . . فأخذ يرتعد فرقا . ثم نزل مسرعا من فوق البرابى ، وجعل يعدو الى منزله مستترا بظلام الليل .

« ديجو ! ديجو ! ماخطبك ؟ »

« لا شيء يا أم ! وما عساه أن يكون خطبي ؟ »

« لست أدري أيها العزيز . . . غير أني . . . حسبتك . . . لقد جئت متأخرا الليلة فهل أهيء لك حجرتك الآن ؟ »

فالتفت الفتى الى أمه منعضبا ، وقال : « ياعجبا لك ! انك تسألينني هذا السؤال كل ليلة من ليالي عمري ! »

وكان هذا الرد كأنه سوط يستحثها . فاندفعت العجوز الصغيرة الجسم نحو الحجرة وهي تجر احدى رجليها .

اتبعها الفتى نظرات قد امتزج فيها الغيظ والكدر آهما وهي تختفي آخر الدهليز ، فتنفس الصعداء اشفاقا عليها ، ثم لم يلبث أن عاوده الضجر والكمد . وقد بقي ينتظرها — دون أن يعرف للانتظار سببا ، ولا ماذا عساه ان ينتظره — في هذه الحجرة المظلمة ، ذات السقف القذر والجدران الممزقة الورق ، التي اتخذتها الام لصناعة الثياب حجرة صغيرة كئيبة قد غصت برخيص الاثاث ، وبعدد الحياكة المختلفة : آلة للخياطة ، مقص مستطيل . تماثيل سخيفة ذات صدور ضخمة . شريط مقاس . قطعة من الطباشير . اكداس من صور الأزياء ذات الابتسامة الكالحة . . . وكلها اشياء قد الف ديجو رؤيتها فلم تعد تستلفت نظره

لقد عاد الى منزله ، يحمل في رأسه صورة كأنها منظر شاهده في مسرح ، صورة تلك السماء العجيبة ، تنشاها السحائب الصغيرة الخفيفة . ومنظر النهر القاتم ، قد انعكست في صفحته أضواء المصابيح والمنازل العالية على الضفة المقابلة ؛ وذلك الشبح البعيد لمدينة روما ؛ وذلك الجسر الممدود . . ثم تلك القنعة ! كانت أمامه صور كل تلك الأشياء الجامدة ، حاضرة لكنها غائبة وكذلك هو . لقد كان حاضرا غائبا . جلس في مكانه المظلم يرقب الرجل وهو يغرق . . فكأنه لم يكن هناك ، وكأنه كان غائبا . فلم يحرك ساكنا ، ولم يفتح فمه ، ولم يستجد . والآن قد رجع إلى داره وقد ملكته الحيرة ، واستولى عليه الذهول . كأنما كل ما سمعه ورآه لم يكن سوى حلم نائم . .

لم يلبث أن رأى قطة كبيرة ، ذات فروة رمادية ناعمة . وثبت فوق المائدة ، وجعلت تنظر اليه بعينين خضراوين خاليتين من كل معنى . هذه قطة الدار ، اتخذوها لصيد الجرذان . غير أنها منذ أيام انتزعت من الجدار قفصا به عصفور جميل . . ثم لم تزل تحتال دائبة ، تدفعها القسوة والنهم ، حتى استطاعت أن تخرج العصفور من بين القضبان . ثم التهمته . وقد حزنت أمه لهذا حزنا شديدا . . بل أنه هو أيضا قد آلمه أن يفترس ذلك العصفور المسكين على هذه الصورة

أما القطة ، فهل تأثرت او أحست ندما على ما ارتكبت ؟ كلا ! بل ها هي ذي جالسة في سكون وطمأنينة ، كأن لم تقترف ذنبا . ولئن رفعها بعض المائدة فانها لن تعرف لهذا الاضطهاد سببا .

عجبا ألا يستطيع هو أن يكون مثلها ؟ ألا يمكنه أن يقترف الاثم كما فعلت هذه المرة ، ثم ينسى كل شيء بعد ارتكاب الجريمة بلحظة ؟ ان الآفة الكبرى التي تسحقه وتعنيه هي أنه يتذكر . . يتذكر أبدا ويعلم أن الناس سيذكرون أبدا .

لكنه يخيل اليه أنه في هذه الليلة يرى الأمور في ضوء جديد . . مثلا : نظرته إلى أمه . . . أنه لم ينظر اليها الليلة كأنها أم . . . بل امرأة عجوز كأمثالها من النساء . . ذات جسم ضخم وأنف غليظ قد اعوج قليلا أحد جانبيه . ولها شامة كبيرة في قاعدة منخرها الأيسر ؛ وخداها الشاحبان تغشاهما خطوط زرقاء من الأوردة الدقيقة . وقد تدلى كل خد في ترهل وضعف . .

وقد جعلت تنظر إليه بعينين متحيرتين خائرتين . وحين حدق في وجهها أطرقت بعينها ، وقد ملأها الخجل والعار . . ولكن مم تخجل الأم ؟ لقد كان يعرف جد المعرفة سر هذا الخجل ، وهذا الشعور بالعار .

وأخيرا ضحك ضحكة الساخر . وقال « عمي مساء اماه ! » وانطلق إلى حجرته ، وأغلق بابها .

* * *

جلست الأم إلى مائدة الحياكة ، لكي تتم خياطة ثوب ، ستحضر صاحبته في طلبه في الصباح . لكنها لم تجلس لتتم عملها فحسب ، بل لكي تفكر قليلا . . ماذا عساه تدبر لفتاها الليلة ؟ طالت غيبته ولم يرجع إلا متأخرا . وكانت تنشاه وعدة . ووجهه شاحب كأنه خرقة بيضاء . . وليس الشراب سبب هذا الاضطراب . انها لم تنشق من فمه رائحة الخمر وليس ديجو من الشاربين

ومع ذلك ، فليس من شك في أنه قد ألم به اليوم حادث . أتراه قد التقى من جديد بأولئك الرفقاء الأشرار . الذين كانت صحبتهم وبالا عليه ودمارا .

ذلك ما كانت تخشاه :

نهضت من كرسيها ، ومشت على أطراف قدميها حتى وصلت الى باب حجرته . وأصغت ، فلم تسمع صوتا لعله إذن قد آوى إلى فراشه وقد غشيه النعاس . .

عادت الى حجرتها . وأخذت تجد في إتمام عملها . كانت من آن لآن تنزع المنظار عن عينيها وتمسحه . لقد كانت من قبل

وليس لها مورد رزق سوى ماكانت تمنحه من معاش كاحدى الأرامل . وكانت تجد فى هذا كفايتها ، أما الآن وقد فقد ديجو منصبه وأضحى بلا عمل . فقد اضطرت الى السعى والاكتساب . وفوق هذا فقد خطرت لها فكره : وهى أنها تستطيع بفضل جدها واقتصادها أن تجمع من المال مايكفى لارسال ديجو الى أمريكا . إذ لابد للفتى من فرصة كى ينشد حظه من جديد . أما هاهنا فى إيطاليا فقد سدت فى وجهه السبل ، وهذه البطالة التى أكره عليها إكراها توشك أن تأكل روحه وتقضى عليها .

أمريكا إذن . إن أمريكا هى وحدها المكان الصالح له . فلابد من إرساله الى أمريكا ولو كان فى هذا موتها وفناؤها . لابد أن يفتح لولدها باب الحظ . . ولدها هى . . ذلك الفتى الكريم . . لله ما أطيبه ! وما أجمله . بل وما أقدره وما اذكاه ! ألم يكن من قبل قادراً على الكتابة والتحرير . حتى لقد نشرت له الصحف بعض ما كتب ؟ ثم ما جرمه الذى اجترم ، وما ذنبه الذى إقترف ؟ لم يكن الأمر سوى ضرب من عبث الشباب ؛ والذنب فيه راجع لأولئك الرفقاء الأشرار ، والى ذلك الروسى أو البولندى ، أيا كان وأيا كانت جنسيته . . ذلك الأجنبى القذر ، ذلك الكبير المهين ، الذى جاء الى روما لكى يسوق أبناء الأسر الشريفة المجلة الى الدمار والعار . فوا أسفاه على أولئك الفتيان البله . كيف ضاع رشادهم ، وضلوا عن طريق الصواب ، إذ دعاهم ذلك الأجنبى الكثير المال الى منزله . فطاشت أحلامهم مابين كؤوس الخمر والنساء وضروب اللهو . . ويصل ذلك الروسى المقامر على أن يأتى بالورق ويلح عليهم أن يلاعبوه ، أجل كان يلح عليهم الحاحا . ولئن كان قد خسر نقوده ، فذلك جزاؤه على اصراره وعناده . لكنه بعد هذا يذهب وبالعار لـ فيتهم أصدقاءه بالغش والتزوير . ثم يسعى فى مقاضاتهم لكى يجلب اليهم الدمار مدى الدهر . . .

سمعت الأم صوتا كأنه صوت بكاء مكتوم ينبعث من حجرة ابنها ، فنادته : « ديجو ! » فلم يرد جوابا .

أنصتت مرة أخرى ، وألصقت أذنها بالباب . إنه مستيقظ . فما عساه يصنع الآن .

إنحنت ونظرت من ثقب المفتاح . . رحماك اللهم ! إنه يقرأ . . عاد الى مطالعة تلك الصحف الكريهة التى أشتملت على تفاصيل المحاكمة . فلماذا . . لماذا يريد أن يعود الى قراءتها . . وفى هذه الساعة من الليل ؟

ونادته بصوت عال : « ديجو ! » ثم فتحت الباب ، فالتفت اليها . وهو يثب نزعا . وقال : « مالخطب ياأم : مابالك لم تأوى إل فراشك ؟ »

قالت : « وأنت ، مابالك لم ترقد فى فراشك بعد ؟ »

فتكلف الابتسام وجعل يمد ذراعيه . « أنا ؟ إنى أتسلى قليلا »

فقالت العجوز وهى تعصر يديها عصرا : « ديجو ! ديجو ! احرق هذه الأوراق ! أستحلفك أن تحرقها . . لماذا تريد أن تؤذى نفسك ؟ ماذا يجديك هذا كله ؟ انس ذلك الحادث تماما ! »

فنظر اليها وهو يضحك .

« شىء بديع ! . كأنى اذا نسيت ذلك الحادث فقد ينساه الناس جميعا ! ماأبدع هذا ! وما أسهلها وسيلة ! نسى الحادث كلنا فى لمحة الطرف ! ثم نتساءل هل حدث شىء ؟ لا . . . لا . . . لاشىء . . . لاشىء مطلقا . . . السجن ! كلا لم يكن هناك سجن . بل كل مافى الأمر أنى سافرت . . . فى اجازة خارج القطر . . . اجازة بديعة دامت ثلاث سنين » ثم قال مغيرا لهجته : « ياأماه ! هذا عبث لاطائل تحته . فلنتكلم فى موضوع آخر . ألا ترين أنى قد قضى على القضاء المبرم ؟ ألا ترين كيف تنظرين - حتى أنت — إلى ؟ »

« لا ياديجو . . . لا . . انك على خطأ وكل ماهنالك فيها العزيز أنى كنت أنظر . . . أجل كنت أنظر . . إلى ثيابك . . فقد باتت رثة . ولابد لك الآن من بذلة جديدة . »

فنظر إلى ثيابه نظرة فحص وتحقيق . ثم ضحك وقال : « اذن أنت تظنين أن هذا هو السر فى تحديق الناس فى كلما رأونى ! لست أنكر أن ثيابى قد امتدت اليها يد البلى قليلا ؛ ولكن هذا القدر القليل ليس بشىء ذى خطر وأنا شديد الحرص عليها . ألبسها فى عناية ، وأمسحها وأكويها . والحقيقة أن مظهرى حين ألبسها لابأس به مطلقا . فهو مظهر الرجل الفاضل ، الذى يستطيع أن يتخذ مكانه فى العالم على غير استحياء ولاخجل . . . فدعى هذا الكلام ! فليس وراءه من طائل ! . . أماه ! ألاترين أنه قد قضى على القضاء الأخير » ثم أشار الى الأوراق التى بين يديه : « ان البلاء كل البلاء ، هنا ، فى هذه الأوراق وحقيقة الأمر أنا أطلعنا الجماهير على لعبة ورواية مدهشة . فهل تحسبين أنهم ينسونها بكل هذه السرعة ؟ لا أظنهم جاحدين بهذا القدر . . . وياليها مزورواية تلك التى أريناهم . . رواية تمثل فيها الأرواح عارية دنيئة ملوثة ، وهى تحاول أن تختفى عن الانظار ؛ يوم كان كل منا يجذب رداء المحامى الذى يدافع عنه لكى يستر به عاره . أجل كانت رواية مدهشة رائعة . أتذكرين كيف أرعد الناس ضاحكين فى ساحة القضاء حينما سمعوا مافعلناه بذلك الروسى يوم أن ألبسناه الزى

الرومانى القديم والبناء الطوجا وأنعلناه الخفين ، على ماله من أنف أفطس ووجه منقط ، ورأس مستدير ، ومنظار ذهبى ، ثم جعلنا ندفع ذلك الخنزير السمين دفعا ، ونضرب رأسه بخفيه ، وكلما أوسعناه ضربا ازداد طربا . لانه قد أخذ منه السكر »

« ديجو ! أستحلفك ! »

« أجل كان سكرانا ، ونحن الذين أسكرناه . »

« لا . لا . لم تكن أنت الذى فعل هذا ، بل الآخرون - . »

« وأنا أيضا . . . أتعلمين يا أماه أن هذا كله كان من سبيل المزاح . لقد كنا نعبث به ونمزح . ثم تناولنا الورق للعب ، وكان من السهل أن نربح . والرجل قد ذهبت بعقلة الخمر . »

« ديجو ! أستحلفك ! »

« علمت لك إننا كنا نمزح ، هذا وحقك ياأماه ، هو الصدق الذى لامرية فيه ، ولكنى حين ذكرت هذا فى دار القضاء ضج الناس بالضحك ، أجل حتى القاضى . . بل لقد كان هو أشدهم ضحكا . . ضحك الجميع من قولى هذا . . الجميع . . حتى رجال الشرطة . ومع ذلك فقد كان هذا هو الحق . فلقد كنا نرتكب الغش ، ونحن لا ندرى . أو اذا كنا ندرى فما كنا نرى أنفسنا إلا مازحين وهل كانت سرى أموال رجل قفر معتوه ، وكانت تنصب من من جيبه أنصابا ، كما انصبت من جيوبنا فيما بعد . حيث كنا نبذرها تبذيرا فى بلاهة وجنون ، حتى لم يبق لدينا منها درهم واحد . »

ثم التفت الى خزانة الكتب وأخرج منها كتابا .

« هذا كل ما بقى لى من تلك الأموال . فقد مررت يوما بائع كتب واشتريت منه هذا الكتاب . » ثم ألقى بالكتاب على المائدة فاذا هو ترجمة فرنسية لكتاب جون ركن المعروف (تاج من أغصان الزيتون) .

وجعل يحدق فى السفر مقطبا حاجبيه . عجبا كيف خطر له فى تلك الأيام أن يشترى هذا الكتاب ؟ لقد اعتزم ألا يعود الى المطالعة ، وألا يخط حرفا أبدا . وما دعاه الى الذهاب لذلك الروسى سوى عزمه على أن يخمد جذوته ، وأن يقتل فى نفسه حلما كان يملؤها : حلما بأنه سيغدو يوما كاتبا ومؤلفا . ذلك كان حلم شبابه . ولكن الفقر الأليم الذى نزل بأسرته جعل تحقيق هذا الحلم أمرا محالا . ولهذا صمم عزمه على أن يقتله قتلا .

وقفت العجوز تتأمل هى أيضا ذلك الكتاب الغريب ، وبعد لحظة قالت فى شىء من التردد : « أترى ياديجو . . . لو أنك عاودت الكتابة »

فنظر اليها نظرة كريهة كئيبة ، انقلبت لهما سحنه وشاهت صورته .

لكنها عادت الى الكلام وقالت : « ماذا يضرك أن تحاول ؟ ماذا يدعوك الى اليأس ، وأنت بعدفى لم تتجاوز السادسة والعشرين ومن يدرى لعل لك فى الحياة حظا جديدا تنسى به ما قد مضى - ! »

فقاطعها ، وهو يخاطبها فى سخرية وتهكم : « نعم ! حظ جديد ما أكثر الحظوظ الجديدة ! أجل وايمرك لقد أصبت الليلة حظا جديدا . فلقد شاهدت بعينى رأسى رجلا يلقى بنفسه فى النهر . وجلست فى مكانى أراقبه دون أن أحرك ساكنا . »

« ماذا تقول ياديجو ؟ أأنت شهدت حادث انتحار الليلة ؟ »

« أجل أنا شاهدت رجلا القى بقبعته على البرابى . ثم صعد والقى بنفسه فى النهر فى هدوء وسكون . وجلست أنا فى موضعى ، منصتا لصوت سقوطه فى الماء ، وكنت على بضع خطوات منه ، جالسا فى ظل شجرة ، وكان كل ما فعلته أن جلست فى مكانى وتركته يغرق . أجل ذلك كل ما فعلت ! ثم استولى على الذعر فجأة ، حين أبصرت قبعته التى تركها خلفه . فلذت بالفرار »

« أنت تعلم يا عزيزى أنك لا تعرف السباحة . فانى لك أن تقوم بمساعدته وانقاذه ؟ »

كان فى وسعى أن أصيح وأستجد . أو على الأقل أحاول انقاذه . فقد كان الى جانبى درجات من الحجر نازلة الى النهر . لم يكن بينى وبينها غير مترين . أتعلمين أنى رأيت هذه الدرجات . أجل رأيتها فى وضوح وجلاء . ولكنى تجاهلت رؤيتها . ثم لم تك الا لحظة حتى قضى الأمر وغاب عن الأبصار »

« ألم يكن بالمكان أحد سواك ؟ »

« كلا لم يكن بالمكان غيرى »

« لا بأس عليك يا ديجو ! وماذا عساك أن تصنع وحدك . فلا تبتئس ! انك متعب منهوك القوى . ولقد هذا كل ما هنا لك ! ولقد أخذت ترتعد لهول ما رأيته الليلة . والآن فاذهب الى فراشك ونم لكى تنسى كل شىء »

وتناولت يده فى شىء من التردد وجعلت تمسحها بكفها . وأجابها على كلامها بهز فرأسه . وقال لها وهو يبتسم « عمى مساء ياأماه »

« ثم هانذا يابنى ! »

لقد أثر فى نفسها أنه سمح لها بأن تمسك يده وتمر عليها بكفها مرارا . وجعلت تمسح عينها من خلف مناظرها . ثم أطفأت المصابيح وذهبت الى فراشها وهى تفكر فى تلك اللحظة التى سمح لها فيها أن تلاطفه تلك الملاطفة .

* * *

« بقية المنشور على صفحة ٦ »

بقية من لغو الصيف

قال بل أفسدتني أنت حين أكرهتني على الذهاب الى باريس ، قالت فانى لا أدع لك حرية الاختيار ، وإنما أفرض عليك الربوة الجميلة الهادئة وحديثها البريء من العبث والتجني فرضا ، قال لقد اطعتك حين ذهبتي الى باريس فأحرى ان اطيعك حين تذهبين بي الى هذه الجنة الخضراء ، واكبر الظن ان طبيعة هذه الربوة الجميلة الهادئة ستكون اقوى منك ومني وستوجه عقلينا وقلبينا الى حيث تريد هي لا الى حيث تريدين ، ولا الى حيث أريد . قالت مادمت واثقا بالطبيعة الى هذا الحد ، مؤمنا لها الى هذا الحد ، فلنذهب الى ربوتك ولنحكم جمالها وهدوءها فيما ستفيض به قلوبنا من شعور ، وفيما ستضطرب به عقولنا من تفكير ، وفيما ستجري به السنتنا من حديث .

وانتصف النهار وإذاهما في هذا المكان الجميل الذي خلت فيه الطبيعة الى نفسها فاتخذت زينتها حرة طلقة لا متكلفة ولا خاضعة لعبث

لم تمض ساعة حتى كان ديجو ابرتر في مجلسه الأول على البراق ، في ظل تلك الشجرة . وقد جلس كما كان يجلس من قبل ناظرا الى النهر ، ومدليا رجليه .

وكانت السحائب لم تزل تغشى السماء في لونها الرمادي الشاحب وكأن لم يتغير شيء مطلقا . . بل لقد تغير شيء واحد : فان القبعة قد اختفت . وأكبر الظن أن أحد رجال الشرطة قد رآها في تجواله فأخذها .

نزل ديجو فجأة عن البراق ومشى نحو الجسر . ثم انتزع قبعته عن رأسه . ووضعها في نفس المكان حيث كانت قبعة ذلك الرجل الغريب .

ثم تبسم وقال : « وها كم قبعة أخرى ! » وكأنه ما فعل هذا لا ليمزح : كأنما أراد أن يمازح رجال الشرطة

وعاد الى مكانه في ظل الشجرة . وجلس برهة يتأمل القبعة ، معجبا بمنظرها وكأنه هو لم يكن له وجود . . ثم اندفع فجأة يضحك ضحكا عاليا وحشيا . لقد بدت له القبعة كأنها قار ، وكأنما هو قطة ترقبها . .

وجعل يتدلى من البراق شيئا ، فشيئا . . ملقيا بنفسه الى النهر على مهل . وقد أمسك الحاجز الحجري بقبضتيه . فأحس بقلبه يثب وشعر رأسه يقف ، ثم أحس بقبضتيه . . وقد أخذ فاني الارتخاء . وانفرجت أصابعه ؛ فهوى الى النهر . . الى الفناء . . ؟

محمد عوض محمد

الناس . وإذا هما ينظران ويسمعان ويتنفسان هذا النسيم الهادىء القوي وقد أزيلت الحجب بين نفسيهما وبين ما في هذه الربوة من جمال هادىء قوي خصب مختلف الألوان . ولو قد خلي بينهما وبين ما كان يغرقان فيه من هذا الصمت الحلو الذي كان يمزجهما بهذه الطبيعة الحلوة لظلا صامتين هادئين حتى تزعجهما ظلة الليل ، فتخرجهما عما كانا فيه من صمت وهدوء . ولكن هذه الطبيعة نفسها أبت عليهما ما كانا فيه كأنها أحبت ان تسمعهما وكأنها أحبت ان تمتزج اصواتهما بأصواتها . فما هي الا ان بدأ نبأة تخرجهما من نعيم الصمت والذهول الى شقاء الحديث والتفكير . احسا نبأة فريبا لها ، وهما ان يتعرفا مصدرها فلم يصلا بما اراد الى شيء ولكنهما تبادلا : وسمع كل منهما صوت صاحبه فاغرى به واشتدت رغبته فيه : وعادا الى ما كانا فيه من حوار ؛ قبل ان يبلغا هذا المكان الجميل .

قال ، واذا فانت تجدين من المشقة في قراءة القصص التمثيلي ما يرغبك عن هذه القراءة : وينفرك منها : ويحبب اليك قراءة هذا القصص اليسير الذي لا اخذ فيه ولا رد ، ولا جدال فيه ولا حوار . قالت نعم وان كرهت ذلك ورأيته آية من آيات الضعف ومظهرا من مظاهر القصور . قال وكيف يكون ضعفا ما تحبين ، وكيف يكون قصورا ما تكلفين به من الامر ؟ قالت تنبه فاني أراك مقدما على اخلاف الوعد الذي سبق . قال فاني لم اعد بشيء على اني لا أدري أين يكون هذا الاخلاف لست عابثا ، ولا متجنيا ، إنما أقول ما أعتقد ، وأصور ما أرى . وإني لأشعر بالنفور من قراءة التمثيل ، وبالرغبة في الاكتفاء بهذا القصص اليسير . قالت فانك تكبر التمثيل اكبارا أراك تسرف فيه ، فلست أجحد قدره ولا مكانه بين مظاهر التعبير الادبي ، ولكن التمثيل خلق للملاعب لا للكاتب ، وخلق لينفذ الى النفس من طريق الاذن والعين ، لا من طريق العين وحدها . وخلق لينفذ الى النفس ممتزجا بأصوات المتحاورين وحركات اللاعبين ، لا لينفذ اليها كلاما غير منطوق ، وعملا لا يأتي به أحد من الناس . قال حجة قوية هذه لا اريد ولا أستطيع أن انقضها وليس من شك في أني اوثر ان ارى التمثيل في الملاعب على ان اخلو اليه في مكتبي ، واوثر ان ارى اشخاص القصة يذهبون ويجيئون ، واسمعهم يجادلون ويحاورون ، ولكن ماذا أصنع اذا حيل بيني وبين الاختلاف الى الملاعب ، لأن ظروف الحياة لا تريد ذلك او لأني اعيش في بلد لا يزهر فيه التمثيل ، ولا يكاد يزوره الا لماما أو لأن آيات من القصص التمثيلي قد قطعت الطريق بينها وبين الملاعب . أأجهل هذا الفن من فنون الأدب جهلا ، وأهمله اهمالا ، وأنسى انه موجود وان فيه للنفوس الراقية متاعا ، وللعقول الراقية غذاء ، وللقلوب الراقية

لذة . قالت وقد أخذها شيء من الدهش كأنما رفع عنها حجاب فرأت نورا باهرا لم تكن تنتظر أن تراه . ماذا تقول ! وأين ذهب بي الجدال ! وإلى أي حد انتهى بي حب الخصومة . قال الى حيث تأتين ما لم يستطع الدهر ان يأتي . وتصدرين احكاماً عجز النسيان وعدوت الأيام وعجزت المحن والخطوب ، وعجز الجهل والجمود عن ان تصدرها . الى حيث تحين من سجل التاريخ الادبي اعلام الادب القديم والحديث . الى حيث تعتبرين ابشيل . وسوفوكل . واوروبيد ، وارستوفان ، وشكسبير . قالت في شيء من الجزع لاتقل هذا ، وكيف السبيل الى قبر هؤلاء الاعلام ومحو هذه الاسماء ، واعمال هذه الآيات ، وان اصحابها لأبقى من الدهر كله واقوى من الناس كلهم ، واحق بالعناية ممن شئت ومن لم تشأ من ابطال الادب والعلم والفلسفة جميعا . ثم انحدرت من عينيها دمعتان وقالت بصوت رقيق تتقطعه العبرة ، كيف يمكن ان ينسى قول سوفوكل على لسان انتيجون في حوار الملك : ولدت للحب لا للبغض .

قال مهلا ، فانا لم نأت الى هذه الربوة الجميلة المحادثة . ولم ننزل ضيفا على هذه الطبيعة الناضرة الباسمة لنسفح الدموع . ونثير في نفوسنا عواطف الحزن ، وقد وعدتك او قد وعدت نفسك بالا نعبث هنا ولا نلهو ، ولكني لم اعدك ، ولم تعدي نفسك بأن نبكي ونرسل الزفرات ونسفح العبرات . قالت والهدوء يثوب اليها واشراق الابتسامة الهادىء الخفيف يذود عن وجهها ما غشيها من ظلمة الحزن . والبكاء لولا شغفك بالجدال وكلفك بالحوار واختيالك في خلق الخصومات التي لاتنتهي ، لما اضطررت الى ان أتورط في هذا الكلام الذي لايمكن ان يوصف الا بأنه فن من فنون السخف او لون من الوان الجحود . قال لست جاحدة ، ومعاذ الله ان تكوني جاحدة ، ولكني قلت لك اني اصبحت أرى ان السخف اقوم ما في الحياة . قالت فكن سخيفا ما شئت . فاني لا احب السخف ، لا احب ان اسمعه ولا احب ان اخوض فيه ، ولولا اننا هنا بعيدان عما احب من الكتب لفرضت عليك عقوبة . . . قال وهي ان اقرأ لك فصلا من فصول التمثيل ، لأقيم لك الدليل على ان التمثيل يمكن ان يقرأ فيثير اللذة والاعجاب بعيدا عن الملعب ، قالت ولمن تريد ان تقيم الدليل وقد عرفت اني اشاركك في الرأي ، واني لم اقل ماقلت ولم أذهب الى ماذهبت اليه ، الا حين اضطررتني انت الى هذا الحوار الذي لاينقطع ، والذي لا خير فيه . قال ما كرا ، ومن يدري لعلك إن حاورتك في الشعر ان تقولي انه لايقرأ ، وانما يسمع من المنشدين . ولعلي إن حاورتك في الموسيقى ان تقولي انها لا تقرأ ، وانما تسمع من الموقعين . قالت ومن يدري لعلك ان حاورتني في اي شيء ان أسيء رأي في كل شيء ، وان ترتدي الى حيث كان السلاف في العصور الاولى ، لا يعرفون الترف العقلي ولا يتلمسون لذة العقل والشعور الا من اقرب الطرق وايسر الوسائل . فقد كانوا يسمعون الشعر ويسمعون الموسيقى ويسمعون التمثيل ، لانهم لم يكونوا يقرأون فأما الآن فقد نستطيع نحن ان نسمع فان فاتنا الاستماع فقد نستطيع ان نقرأ . واني لأفكر في هذا فاعجز عن احصاء نعمة الله على الناس حين الهمهم الكتابة وعلمهم القراءة .

فهذه النعمة هي التي حفظت لنا ما بقي في ايدينا من آيات اليونان في العصور القديمة وأتاحت لنا ان نعجب بما كان يعجب به الناس من سحر الشعر والنثر . منذ القرون الطوال . وهذه النعمة هي التي تتيح لنا دائما ان نستبقي آيات التمثيل التي لم يبق بينها وبين الملعب من سبيل . لأن الاذاعة قد اصابها من التغير والتبدل ماجعل تمثيل هذه الآيات أمرا لامطمع فيه . فلو لاانها قد حفظت لنا بالكتابة ولولا اننا نستطيع ان نحييها في نفوسنا بالقراءة ، لماتت موتا لانشور بعده وكيف ترى تمثيل ارستوفان ، وأي قصصه يمكن ان يظهر في الملاعب الآن واين الآذان التي تستطيع ان تسمع لحواره وما فيه من تجاوز لذوق الاجتماعي ومخالفة الادب المألوف . ومع ذلك فكيف يستطيع مثقف ان يحيل تمثيل ارستوفان ، إني لأكره كل مايشبه عن الأدب الذي تواضع الناس عليه واني لأرفض كل الرفض ان اقرأ على احد ، أو اسمع من احد كثيرا من قصص ارستوفان ، بل اني لأكره ان اقرأ هذا القصص كما كان القدماء يقرأون بصوت عال تسمعه الاذن ، ولكني على ذلك اعترف بأني اطيل النظر في هذا القصص واقرأه المرة بعد المرة واقرؤه كلما ضقت بالحياة أو ضاقت بي الحياة اقرأه بالعين لا بالشفتين واللسان . قال ومالك تقفين عند ارستوفان وإن في آيات سوفوكل وصاحبيه لما يعجز الملعب عن اخراجه للناس الآن ، لأن في التمثيل نفسه ، قد تتغير وتتبدل ولكن أي حرمان يصيب المثقفين لو قضى عليهم ان لايقرأوا غناء الجوقة في شعر هؤلاء الاعلام وشكسبير ايجب ان يحرم المصريون مثلا لذة الاستماع آياته لأنها لاتمثل في بلادهم ، بل ايحرم الانجليز انفسهم لذة الاستماع آياته لأنها لاتمثل عندهم الا بمقدار . قالت بل نستطيع ان نذهب الى ابعد من هذا فقد نستطيع ان نؤمن بأن القصص التمثيلي فن من فنون التعبير الادبي يمكن ان يقصد اليه من حيث هو ، وان يكتب الكاتب قصة تمثيلية لتقرأ لا لتمثل ، قال فانك لاتذهبين الى شيء مستحدث وهل كانت كتب افلاطون كلها

« البقية على صفحة ٤٢ »